التـــراث والحضـــارة

حين تتحلق الندوة حول التراث، ويدور الحديث عنه، ترتسم علامات استفهام كبيرة وكثيرة... منها:

* ماهو التراث على التحديد؟
* ما دوره الحضارى؟
* ماهى مصادر التراث؟
* كيف نتعامل مع التراث؟
* ما أسباب دراسته؟
* هل للتراث قضية؟
* ما هو التقييم الحضارى للتراث؟

الآية ١٩ من سورة الفجر (وتأكلون التراث أكلا لما) هنا التراث إرث مادى.

والآيتان الخامسة والسادسة من سورة مريم (.... فهب لى من لدنك وليا – يرثنى ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضيا).

والنبى زكريا فى هاتين الآيتين الكريمتين إنما قصد بدعائه ورجائه الفضل، لا المال... فتوارث المال ليس همّ الأنبياء.. إن ما يعنيهم إنما هو، الفضل والقيم... وورثتهم، فيها، العلماء.. (العلماء ورثة الأنبياء)... ويؤكد هذا قول النبى عليه السلام: (إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة).

أحد تعريفات **التراث** الوافية أنه (تجارب السلف المنعكسة على الآثار التى تركوها فى: المتاحف، أو المقابر، أو المنشآت، أو المخطوطات، ومازال لها تأثيرها حتى عصرنا الحاضر. إن التراث يعنى أيضاً الملاحظات التى أدركها الموهوبون فى الفن عبر العصور، وتركوا بصماتهم معبرة عن هذا الإدراك السخى الذى تنحنى أمامه الرءوس تقديراً... والتراث يعنى ما وصلت إليه البشرية من قيم حققتها عبر العصور، أى منذ أن استطاع الإنسان أن يخطط فى الكهف حتى العصر الحديث.

obeikandl.com

وهذا التعريف ينسحب على العصور التاريخية البعيدة بل الموغلة فى أعراق القدم مع أن كثيرين منا حين نقول التراث، ينصرف الذهن إلى العصر الإسلامى دون سواه من العصور الأخرى.

وهم معذورون فنحن أصحاب هذا التراث نخص، فى الواقع، التراث الإسلامى.

إن الإسلام أكثر من رابطة تجمعنا، فهو لم يوجد بيننا بذاته، فحسب دينا ... عقيدة وشريعة، بل وحد بيننا **لغة** فى منطقة الشرق العربى على الأقل ... ووحد بيننا فى **الفكر** النابع منه على الساحة الكبيرة .. أى العالم الإسلامى.

ويجهد المحللون فى النفاذ إلى سره كما حدث فى مؤتمر الفن الإسلامى الذى عقد بلندن عام ١٩٧٦ فقالوا إن وحدة الفن الإسلامى تعزى إلى الخط العربى كما أسلفت... ونسوا أن **وحدة** الفن الإسلامى جاءت من **وحدة الفكر الإسلامى**.

وتتمثل وحدة اللغة فى الكتب الجامعة مثل كتاب: (المخصص لابن سيده) فى القرن الخامس الهجرى الذى اعتمد على مصادر كثيرة ينتمى أصحابهم إلى بلاد مختلفة من دولة الإسلام فى ذلك الوقت .. ولكن لسانهم واحد وبالتالى تراثهم جامع ومشترك.

ويعدو الأمر، المعاجم، إلى كتب البلاغة، فيستعين السبكى فى شرحه بمئات من كتب سبقه أصحابها إلى علوم البلاغة، وفنونها.

وبعد البلاغة، **الشعر** ... الذى يمثل كتاب الذخيرة لابن بسام، وحدته فيعارض الشاعر فى الغرب الأندلسى، الشاعر فى الشرق. وكم هفا الأندلسيون إلى الشرق وتعلقوه .. وعلى رأسهم عبد الرحمن الداخل. بحنينه الدافئ وحديثه الشجى الشهى إلى نخلة الرصافة.

وحين أخذت دولة الإسلام بالترجمة فى حركتها العلمية، تنقل العلماء بسهولة بين أنحاء هذه الدولة، **لوحدة اللغة ووحدة الهدف** فالتقت جهودهم وعقولهم فى العلم، كما التقت قلوبهم فى الدين ... ويتبادلون الرسائل ويتجاذبون الحوار .. ويرحل ابن بطلان طبيب بغداد إلى القاهرة ليلتقى بطبيبها على بن رضوان عام ٤٤١ هـ بل هاجر ابن الهيثم من البصرة إلى القاهرة ولزمها حتى آخر يوم من عمره كما هاجر إلى القاهرة ابن البيطار من الأندلس.

حتى **التراث الشعبى** على ذاتية له وخاصية فيه، كانت تربطه فى أوطان الإسلام، خطوط عامة وإن درجت تحتها تفاصيل تختلف من بلد إلى بلد بما يضفيه عليه أصحابه، ويضفيه إليه مبدعوه، من خصائص مميزة تحمل طابع بيئتهم وبصمتها ...

حتى **السياسة**، وهى شائكة، جاء اخوان الصفا برسائلهم يجعلون منها **تراثا موحدا** بما أخذوا من كل رأى ومذهب فى موضوعية وعقلانية فهم يصرحون (إننا لا نعادى علما من العلوم، ولا نتعصب لمذهب من المذاهب، ولا نهجر كتابا من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألقوه فى فنون العلم، وما استخرجوه بعقولهم وتفحصهم من لطيف المعانى)[1].

وحدة التراث تمثلها الموسوعات التى لم تقتصر على بلد بل امتدت اطلالتها فضمت العالم الإسلامى على انفساح الرقعة وتعدد الأسماء.

إن الأسلوب الخاص للتاريخ الإسلامى ومؤرخيه سواء ما كان منه تأريخا بالسنة، أو تأريخا لبلد من البلاد، يقول بوحدة التراث ....

فالطريقة الأولى تغطى بطبيعتها، العالم الإسلامى. أما الطريقة الثانية فمع تحديدها بلداً بعينه، مثل النجوم الزاهرة، إلا أنها لم تلبث أن طافت وطوفت بالأقطار الأخرى.

خيط حريرى غير منظور يربط العالم الإسلامى، هو:

التراث بعد القرآن الكريم

فإذا دعونا إلى استبيانه واستلهامه، **فلأنه وجودنا النفيس**. إنه نحن ... والشئ لا يكون إلا نفسه كما يقول المناطقة.

أما **الحضارة** فهى ثمرة سلسلة طويلة من التحدى والاستجابة فى تاريخ الإنسان فردا فى شعب .. وشعبا فى وطن .... وأوطانا على الساحة الكبيرة مع تفاوت بين البلاد والشعوب ... أو هى كما عرفها الدكتور حسين مؤنس فى كتابه: «الحضارة» – فى مفهومها العام – ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصود أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية.

وهكذا ترى المفهومين أو التعريفين **متداخلين**.
فى الواقع، **التراث حضارة** بما هو عطاؤها الباقى.
والحضارة تراث بما هى ذخر أمة وميراث الأجيال.

---

(١) أقرأ للدكتور عز الدين فودة (التراث السياسى فى رسائل إخوان الصفا) مجلة (فصول) المجلد الأول – العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٠.

obeikandl.com

والحديث عن التراث ليس للزهو فيما يفيد الزهو الجيل الحاضر أو يغنى عنه، أو يعفيه من إضافة جديدة الى تليد شاهد بحضوره على أصحابه .. بل لعل الحديث عن التراث نداء للحاضر، وإيذان بالمسئولية.

وإكبار التراث لا يعنى تقليده فإن فى هذا، تجميداً للمواهب الخلاقة وحجراً عليها ولكن يعنى تجديده، فى امتداد له، واستمداد منه ... حتى تتواصل الخطى على طريق طويل يجمع فيه الخالف بالسالف، **وحدة العرق وعز الانتماء.**

وليس معنى التراث، التصديق على المقولة (التاريخ يعيد نفسه) لأن التاريخ أو الحضارة مجموعة إشراقات أو فيوض إبداع كتب بها أصحابها، التاريخ. والإبداع لا يتكرر بالقدر نفسه والمقدار .. وإلا فقد جوهر الابتكار وهو الخلق على غير مثال.

وليس معنى التراث تحصيل حاصل ولكن استكشاف جديد فيه، أو تنقية قديم من شائبة قد تخرج به عن معناه.

والإبداع كثيراً ما يكون رؤية جديدة لقديم مستقر .. حين يكون الابتكار، موهبة خلاقة فيها عنصر الميلاد والمفاجأة حتى لصاحبها نفسه. وقد كان أناتول فرانس عندما يقرأ حوار أبطاله يقول: أى شيطان أجرى على لسانهم هذا الشعر.

والتراث هو الذى يصنع البطولات باستيعابه والانتماء الحميم اليه. فالبطولة_ كما يقول الدكتور عفت الشرقاوى (لا تنشأ من فراغ وإنما هى تجسيد لآمال الشعب. فالبطل رمز أمته وذروة فاعليتها التاريخية – وليس هناك على الحقيقة بطولة خارج إطارها الشعبى .. بل إن البطولة لا تكون كذلك إلا إذا انبثقت عن تراث هذا الشعب التاريخى وارتبطت به أشد الارتباط ... فإذا لم تكن كذلك سقطت قبل أن تقوم).

كما لا يعنى إكبار التراث، **التسليم بكل ما فيه** فأصحابه، وإن عزوا، بشر، يجوز عليهم الخطأ والقصور فى غير تقصير.

ولا يعنى إكبار التراث التخلف عن مواكبة العصر السريع التغير والتقدم **ولكن الخير فى الجمع بين التراث والمعاصرة** وهنا يكون التراث ركيزة للحاضر، وانطلاقة نحو المستقبل فى ثبات اليقين ... كالدوحة الفينانة لاتنال منها العواصف لأن جذورها ضاربة في أعماق الأرض ... أو كشجرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء شأن كل طيب أصيل.

وهكذا يعنى التراث فى وقت واحد، **الاستلهام والخلق واللمح والطموح ... الاعتزاز والابتكار**. ولا غنى عنها جميعا مجتمعة ومفردة.

ومن هذا ولع الشعراء فى بداياتهم **بالمعارضة الشعرية** ثم التحليق فى آفاق جديدة يحققون فيها ذاتهم على غير مثال بقدر ما يسع التأثر والتأثير.

ومثل هذا يحدث فى مجالات الفن الأخرى. فقد بدأ مايكل أنجلو بتقليد نماذج الفن الإغريقى الذى كان يحلو لأوربا الانتماء إليه. وأتقن هذا التقليد إلى حد يصعب معه التمييز بين الأصل والمقلد ولكنه أضاف فيما بعد إلى منحوتاته قوة البناء الجسمى بمفهوم فنى للتشريح كما أضاف إيقاع الحركة.

ورمبرانت أضاف **عامل الضوء** كعنصر من عناصر التشكيل الفنى + التعبير الدقيق عن بصمات الزمن ممثلة فى التجاعيد.

والتراث الإسلامى، على اهتمامنا العلمى وارتباطنا العاطفى به كثير منه **مبدد** .. غير مصون ... **مفرق** غير مجموع.

عن **تسرب التراث** يقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه (خطط الشام) (من المصائب التى أصيبت بها كتب الشام، أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وبريطانيا وهولندا وروسيا، أخذت تجمع منذ القرن **السابع عشر كتبا** من تراثنا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان قومنا ولاسيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب، فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف فيه كأنه ملكهم.

وحدثنى الثقة أن أحد سماسرة الكتب فى القرن الماضى، كان **يغشى** منازل بعض أرباب العمائم فى دمشق ويختلف إلى **متولى** خزائن الكتب فى المدارس والجوامع فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة. وبقى هذا سنين يبتاع الاشعار المخطوطة من أطراف الشام، ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته وكافأته عليها، ص٤٠.

إن النمسا تقتنى أكبر وأغنى مجموعة من البردى فى العالم كله. وقد بدئ فى جمعه منذ ١٨٢٤ إن مجموعات الأرشيدوق «إينر» تبلغ وحدها نحو سبعين الف بردية!

وهذه البرديات مصرية قديمة وعربية منذ الفتح العربى لمصر حتى عصر المماليك. وتأتى بعد النمسا، ألمانيا وبريطانيا وفرنسا حيث يضم متحف اللوفر بباريس ٣٠٦ بردية عربية لم ينشر منها شيء حتى الآن. ولم تتخلف إيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وروسيا بل بولندا وسويسرا وبالطبع أمريكا ...

هذا حين لا تملك البلاد العربية شيئاً من كنوز البردى إذ استثنينا مصر التى تملك مجموعتين.

مجموعة دار الكتب وتضم ألف بردية.

ومجموعة المتحف المصرى

ماذا عندنا ؟

فهرس المخطوطات المصورة[١] الذى أصدره معهد المخطوطات العربية يشير إلى أن فى معهد المخطوطات العربية ٨٤٤ مخطوطا فى فن الطب وحده (كلها من النفائس القيمة النادرة التى انتقاها المعهد وجمعها من مختلف أنحاء العالم عن طريق بعثاته. أو حصل عليها عن طريق التبادل أو طلبها من مكتبات العالم).

أما كتاب «مخطوطات عربية» الذى أصدره المجمع العلمى العراقى فيقول: (إن فى مكتبة صوفية المركزية **ما يزيد على ثلاثة آلاف مخطوطة فى جميع فروع المعرفة** ... وأكثرها فى الفقه والفتاوى الشرعية وأصول الفقه والنحو والصرف والبديع والبيان والفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وآداب البحث والمناظرة.

ويوجد نحو مائتي مخطوطة فى الطب والفلك؛ والرياضيات[٢].

هذه أمثلة فحسب

أسباب دراسة التراث

* جمع المفرق منه
* تحقيق الموجود بين أيدينا
* الإحاطة العلمية به فى محاولة معرفة أنفسنا
* تمزق الإنسان بين حضارته وحضارة الآخرين

---

(١) الجزء الثالث – العلوم – القسم الثانى الطب.

(٢) الدكتور يوسف عز الدين (مخطوطات عربية) .

طبيعة الصراع بين الحضارات الغالبة والمغلوبة وتمزق إنسان الدول النامية بين قيمه الموروثة والمحببة وبين مقتضيات ومتطلبات الحضارة الصناعية.

والنتيجة ليست فى صالحه إذ (لا يمكن تفادى وقوع التغيير الحضارى فى هذا العصر الذى اتسعت فيه المواصلات الفكرية والمادية، وصارت نطاقا يلف العالم كله[١].

مشكلة العصر لا فى مصر وحدها بل فى الشرق خاصة هو زحف أمريكا أو الحضارة الصناعية على إنسان الحضارات الانسانية.

إنها مشكلة الاختيار.

وهنا يكون التمسك بالتراث، تماسكاً فى وجه الحضارة الصناعية.

تأمينه فتراثنا نهب من حيث الكم والكيف. لقد تركنا دراسته للمستشرقين وولاء معظمهم غير مبرأ من الغرض أو الهوى.

كما تركنا إباحة انتحاله، بغير رد أو **حد**.

إن **اليهود** يشنون حملة ضارية فى امريكا وكندا تستهدف انتحال كل انجاز حضارى لشعوب الحضارة القديمة وخاصة مصر فى عملية تأثير مرسوم، على الرأى العام هناك.

أما **المستشرقون** الذين كتبوا عن تراثنا فكتبهم وكتاباتهم متعددة ومن أهمها كتاب (تراث الإسلام)[٢].

أسوق المثال من كتاب يعد من أهم وأكبر ما كتبوه، وهو كتاب من ثلاثة أجزاء كبيرة تحمل اسم (تراث الإسلام).

ومما جاء فى هذا الكتاب:

المعرفة الاسلامية تتسم (بالتمييز الصارم بين الخاصة والعامة، وهذا يفسر الصفة الارستقراطية والحضرية لمعظم إن لم نقل لكل الآداب والمعرفة).

* كما يفسر التمييز بين اللغة الأدبية واللغة العامية.

---

(١) كتاب (التعبير الحضارى وتنمية المجتمع) للدكتور محيى الدين صابر، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٢) تراث الإسلام تصنيف شخت وبوزورث ترجمة الدكتور محمد زهير السمهورى.

obeikandl.com

* وهذا أدى فيما بعد إلى المبالغة فى تبجيل العلماء الذين يعتبرون الحجة فى جميع فروع المعرفة.

* إن الاكتشاف الهام للدورة الدموية الصغرى من قبل ابن النفيس لم يؤثر على معاصريه وعلى من جاءوا بعده وإن الأفكار الأصيلة التى جاء بها ابن خلدون نالت من المديح لفصاحة لغتها أكثر مما نالته بسبب محتواها.

وهذا كله مردود ومرفوض من الإنسان العربى بل من الإنسان المنصف ولو لم يكن عربياً أو مسلماً.

فالإسلام الذى أعلى من المساواة، والمعرفة الإسلامية التى نشأت فى كنف الإسلام روية من روحه لا تعرف الطبقية.

والمسلمون فى تبجيل العلماء إنما يستجيبون لدعوة كتابهم، الموصولة إلى التعلم والتأمل واقتران العلم بالعبادة وتفضيل العلماء على الشهداء.

إن «شاخت» يحصر اهتمام العرب فى اللغة!! وهو قول يكفى فى دحضه المثل الذى جاء به واعنى ابن النفيس الذى اهتم بالبحث العلمى وكرس جهده له دون سواه.

وهنا يحضرنا قول الدكتور عبد الحليم منتصر[١] (الذين درسوا التراث أغلبهم من الغربيين، ولا تخلو كتاباتهم من تميز ضد الحضارات السامية).

وهو سبب قال به الأستاذ العقاد فى تعليل التهوين من دور العرب فى الحضارة الإنسانية إذ يقول (إن البدعة الحديثة التى نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوروبيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ولو كانت شرقية - بملكة الإبداع والتفكير الحر ولاسيما فى المباحث النظرية التى يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو الانتفاع به فى مرافق المعيشة .. لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهى إلى تمييز العنصر الأوروبى فى أصوله الأولى، وهى الدعوى التى يسوغ بها سيادته على أمم العالمين)[٢].

وتقتضى الأمانة العلمية أن نذكر فى الجانب الآخر، منصفين أشادوا بالحضارة الاسلامية. يقول الأستاذ **سنجر** Charles singer إن الحضارات تكونت مستمدة كل منها

---

(١) كتاب تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه.

(٢) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٨.

على الأخرى بصورة ما، وهى فى الحقيقة ليست إلا أدوارا حضارية فى حركة واحدة فى تطور البشرية. وأنه ينبغى لنا إذا أردت أن تفهم الدور الأوربى من أدوار الحضارة أن نرجع إلى أصوله. وهذا أمر لا نستطيع تحقيقه إلا من خلال القرون الوسطى فقط(١).

ومن هؤلاء «لالاند» الذى عد الفلكى العربى «البتانى» من العشرين فلكيا المشهورين فى العالم، كما عد «كاردانو» الكندى من الاثنى عشر عبقريا الذين ظهروا فى التاريخ. ويقول المستشرق «سخاو» عن «البيرونى» أنه أعظم عقلية فى التاريخ كما يقول «سارتون» عن «ابن الهيثم» إنه أعظم عالم طبيعى مسلم فى التاريخ _ وقد لقب الشيخ الرئيس «ابن سينا» بالمعلم الثالث بعد الفارابى وأرسطو(٢).

ودخول أوربا عصر العلم، أدى إلى ضرورة معرفة جغرافية العالم الإسلامى. وهذا بدوره أدى إلى البحث التاريخى فى الاتجاه نفسه ... يعزز هذا الدافع الاقتصادى فقد كان العالم الإسلامى بثرواته منطقة جذب لعدد غفير من التجار الأوربيين.

إن الاهتمام بالكتابة عن التراث الإسلامى .. وهذا الاهتمام فرع من الاستشراق، ظهر أو أشتد فى أعقاب الحروب الصليبية التى أوجدت حاجة كبيرة وملحة للحصول على صورة كاملة ومسلية مرضية لأيديولوجية الخصوم ... كان الشخص العادى يريد صورة لأبرز السمات الغريبة التى أدهشت الصليبيين فى تعاملهم مع المسلمين.

وهكذا كما يقول «مكسيم رودنسون» حدث أن الكتاب اللاتينيين الذين أخذوا بين عام ١١٠٠ وعام ١١٤٠ على عاتقهم إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامى، أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد دون أى اعتبار للدقة فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» كما جاء فى كلمات ر. و. ساوثرن R.W. Southern.

ومن الطريف أنه لما جاء دور المسلمين فى الانتصار، واستردوا بيت المقدس، أرادوا أن يتخلصوا من عقدة صلاح الدين فانتحلوه!! فظهرت فى القرن الرابع عشر قصيدة طويلة، اطلقوا عليها اسم «صلاح الدين» أعيدت فيها صياغة حوادث الأساطير القديمة السابقة .. فلا يجوز فى عرف أوربا أن يكون فارسا قمة مثل صلاح الدين إلا مسيحيا فلم تلبث أن زعمت أن أمه هى الكونتيسة بونثيو Countess of Ponthieu وأن سفينتها تحطمت على الساحل المصرى بل مضت فى الإغراب والإغراق الى أن الرجل اعتنق المسيحية وهو على فراش الموت!!.

---

(١) كتاب الحضارة الاسلامية أساس التقدم العلمى الحديث للأستاذ جلال مظهر ص ٢.

(٢) أقرأ كتاب (تاريخ العلم) للدكتور عبد الحليم منتصر.

بل بلغ العداء للمسلمين أن نقموا على الامبراطور فريدريك الثانى (النورماندى) لتعاطفه مع الإسلام واهتمامه بالعربية ومودته للمسلمين فقام البابا جريجورى التاسع Greegory IX بطرده من الكنيسة عام ١٢٣٩ بتهمة الود للإسلام والمسلمين.

لم تصحح نظرة أوربا ونظريتها إلا بداية عصر النهضة واكتشافها ما عند المسلمين من ثروة علمية مما أذكى فيها بالتالى **حب الاستطلاع عن الإسلام**.

وحين بدأ اهتمام أوربا بالفلسفة وبأرسطو خاصة وجدت طلبتها عند المسلمين فى الأندلس فقد ذهب جيرارد دى كريمونا Gerrad of Cremona (١١١٤ – ١١٨٧ تقريباً) الى طليطلة بحثا عن ترجمات عربية للنصوص اليونانية التى كان يرغب فى ترجمتها وبذلك يضيفها إلى حصيلة الفلسفة الغربية. وفى الوقت نفسه كانت قد بدأت فى ترجمة «كتاب الشفاء» لابن سينا. وتلتها ترجمات لسائر كتبه فذاعت شهرته فى أوربا وكان لها تأثير عميق. وتبع هذا ترجمات فلاسفة المسلمين الآخرين.

وهكذا أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامى **بوصفه مهد الفلاسفة العظام**.

وهكذا رد علم المسلمين ونصرهم، أوربا، إلى الصواب، يقول «مكسيم رودنسون» صحيح أن محاربة الإسلام ظلت أمراً واجباً! لكن معرفة عميقة به كان من شأنها أن تؤدى إلى المزيد من الموضوعية، بل أن تؤدى فى المدى البعيد إلى المزيد من النسبية. ففى بداية القرن الرابع عشر أخرج دانتى من النار، كلا من ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين ووضعهم فى المطهر، وهؤلاء هم المحدثون الوحيدون الذين انضموا إلى حكماء العالم القديم وأبطاله.

وفى عام ١٣١٢ صادق مجلس فينا على أفكار بيكون وليل بخصوص تعلم اللغات وخصوصاً اللغة العربية(١).

أضف إلى هذه الأسباب **اتساع حركة التبشير والاستشراق** حتى انتشرت كراسى الدراسات الشرقية فى الجامعات الأوربية.

وأضف إليه **ظهور العثمانيين** على مسرح الأحداث ونمو امبراطوريتهم على حساب البلقان المسيحى وخاصة اليونان وله دالة على أوربا.

---

(١) كتاب تراث الإسلام.

أما الحاجة التى تدفعنا دفعا إلى دراسة التراث وخاصة اليقظة الفكرية التى لن تتأتى لنا ما لم نتدارك كما يقول الدكتور طه حسين، مانسينا من التراث القديم ونستدرك ما فاتنا من العلم الحديث(١).

لابد لنا من **إحياء التراث**، ونلاحظ أن أعلام الإحياء والبعث فى تاريخنا خصوا التراث باهتمام بعيد المدى فالشيخ رفاعة الطهطاوى أنفق جهدا كبيرا فى جمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا إلى جانب ما نقله عن الغرب من علوم حديثة .. وهو مؤشر لا يخطئ إلى إيمانه بأن الإصلاح له شقان:

* معاصرة علمية ...
* دراسة للتراث.

وكذلك فعل أحمد زكى شيخ العروبة .. وكذلك فعل أحمد تيمور باشا والشيخ محمد عبده فى محاولة تجديد الفكر الإسلامى، والبارودى فى محاولة إحياء الشعر العربى.

وكان الأستاذ الخولى يشترط على طالب الماجستير والدكتوراه أن يزود رسالته بنص محقق لمخطوط من التراث فى موضوع رسالته.

ولكن إحياء التراث يستوجب **تنقية التراث**. يقول الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه (بناة النهضة العربية) عند الحديث عن الإمام محمد عبده.

(وأما تنقية الدين الإسلامى من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها أن أطلق لفكره، الحرية فى تفسير القرآن. ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التى يحرم الأئمة تبديل شئ منها. فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختيار لنواميس العمران على ما بلغ إليه هذا العلم إلى الآن مع مطابقة لأحكام العقل وأصول الدين)(٢).

وممن أخذوا بتنقية التراث الدكتور أحمد أمين فى إسلامياته الجامعة: فجر الإسلام _ ضحى الإسلام _ ظهر الاسلام. وممن أسهموا فى تنقية التراث الأستاذ عبد الحميد العبادى.

---

(١) أقرأ (مرآة الإسلام) ص ٣٠٨.

(٢) ص ٨٥.

وقد أشار ابن خلدون فى (المقدمة) إلى الخلط والوضع فى الروايات التاريخية.

(التاريخ لا يزيد فى ظاهره عن الأيام والدول والسوابق من القرن الأول .. وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق .. وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابه عميق).

ويقول:

(إن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها .. وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار، الكثير ممن جاءوا بعدهم واتبعوها ... فالتحقيق قليل .. والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل).

وعنده أن: «الناقد البصير قسطاس نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون». فللعمران طبائع فى أحواله ترجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار[1].

وأسباب الوضع فى التراث:

* الصراع بين الفرق الإسلامية.
* السخائم القبلية التى انتقلت معهم فى الإسلام.
* الشعوبية وهنا رتع حماد الراوية وخلف الأحمر.
* نزعات الدول الإسلامية خاصة الأموية والعباسية.
* القصاص والاخباريون ورغبتهم فى الاطراف بالتزيد والمبالغة ووشى الخيال.

ويضيف الدكتور طه حسين عاملاً آخر وهو:

(فساد الذمم والخلق مما جعل الاخباريين يزيفون الحقائق مقابل الأموال والرشاوى)[2].

ويقول فى كتابه «الفتنة الكبرى»:

(القدماء أنفسهم وضعوا قواعد التعديل والتجريح والتصديق والتكذيب وترجيح ما يمكن ترجيحه وإسقاط ما يمكن اسقاطه والشك فيما يجب الشك فيه، فليس عندنا بأس بأن

---

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) كتاب (الفتنة الكبرى) للدكتور طه حسين، ص ٩٢-٩٣.

obeikandl.com

نسلك الطريق التى سلكوها، وأن نضيف إلى القواعد التى عرفوها، ما عرف المحدثون من القواعد الجديدة التى يستعينون بها على تحقيق النصوص وتحليلها وفقهها)[١].

وعاد إلى الموضوع نفسه فى كتابه: (الشيخان) ويقول الدكتور زكى نجيب محمود بعد أن وقف وقفة ليست بالقصيرة عند خطبة الحجاج المنفرة الباغية التى تتنافى مع قيم الإسلام شمائل الإنسان وطبائع الحى ... (إننا فى موقفنا من التراث ما ينبغى أن نتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض فندرسهم معاً، ولكن ندرس الأبيض ليحيا فى سلوكنا وندرس الأسود ليموت فى ظلمته)[٢].

ومن أهم موضوعات تنقية التراث **بل أخطرها جميعاً:**

الإسرائيليات:

وقد تنبه أسلافنا إليها فى القرن السابع الهجرى حين شغلت المحافل بالرد على الشكوك التى أثارها الفيلسوف اليهودى «ابن كمونة» فكتب «الشيرازى» رسالة فى تفنيدها .. وتجمع السخط على ابن كمونة فى كتب منها:

(الدر المنضود فى رد فيلسوف اليهود)

لمظفر الدين البغدادى المعروف بابن الساعاتى.

ومنها كتاب «المارديني» الذى كتبه سنة ٧٥٣ (ومنه نسخة فى روما) والأمثلة كثيرة[٣].

وفى التراث قضايا آن لنا أن نواجهها .. منها: **قضية الإسلام والتصوير:** لماذا التركيز على نفرة الإسلام من التصوير؟

ولماذا يقرن الاسلام وحده بالنفرة من التصوير؟

لم يحارب الإسلام التصوير على إطلاقه .. وإنما حذر مما يقصد به، العبادة أو يصرف عنها. والعهد القديم يحرم صنع التماثيل لهذا الغرض (ملعون الإنسان الذى يصنع تمثالا منحوتا أو مسبوكا لدى الرب عمل يدى النحات ويضعه فى الخفاء).

---

(١) مرآة الاسلام جـ ١: ط ٨، ص ١٧٢.

(٢) مقال (إحياء التراث وكيف أفهمه) مجلة العربى عدد ديسمبر سنة ١٩٨٠.

(٣) أقرأ كتاب (تراثنا الفلسفى، حاجته إلى النقد والتمحيص) للأستاذ محمد رضا الشبيبى.

وجاء سفر الخروج (٨) : (لا يكون لك آلهة أخرى أمامى) .
لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة عما فى السماء من فوق .
وما فى الأرض من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك) .
هذا حين لم يحرم القرآن التماثيل فى نص صريح .

يقول الدكتور ثروت عكاشة (وليس من منطق الأمور أن يحرم التصوير على اطلاقة مع أنه قد يكون عمادا فى حفظ حقوق شرعية، كما هو الشأن فى صور الغرقى والأموات من مجهولى الشخصية والتى تعرضها الدولة على الملأ ليتعرف إليها، وعليها، ذووهم، وتتجدد بذلك الحقوق والواجبات والأحكام الزوجية وحلول الديون والهبات والمواريث ونحو ذلك. وقد يكون التصوير كذلك سببا من أسباب تحذير الأمة من اللصوص والمحتالين والجواسيس والإرشاد عنهم. ومن الصور مرسومة أو منحوتة ما نعرف به أسرار جسم الإنسان والحيوان والنبات والصخور وغير ذلك مما هو لازم فى علوم الناس وفى تقدم البشرية وتطورها .

ومن القواعد الأصولية الشرقية، أن للوسائل أحكام الغايات والمقاصد، فاذا كانت الصور تتوقف عليها بعض أحكام شرعية أو معالجات طبيعية أو كشف وسائل علمية، كان اتخاذها مباحا، ولا تحريم لها إلا إذا اتخذت للتعظيم والعبادة والتبرك(١) .

ويرى لاوجيوم أن تفسير اليهود كتابهم والقول بتحريم التصوير على اطلاقه قد **واكب فجر صياغة الفقه الإسلامى**(٢) وأنه انتقل إلى الفكر الإسلامى على يد من أسلم من رجال من اليهود واستطاعوا الوصول إلى مقام القرب من الرسول والصحابة بل غدوا من رواة الأحاديث مثل عبد الله بن سلام الذى كان أستاذا لابى هريرة ومثل كعب الأحبار الذى تتلمذ على يديه ابن عباس .

على أن معبد دورا اوريوس اليهودى على الفرات، حافل بالرسوم الدينية ذات الشخوص الآدمية والحيوانية، وكذلك كفارنا عوم بفلسطين .

وقد حطم المسيحيون الصور المسيحية فى مطلع القرن الثامن بل ذهب أبعد من هذا، اتباع **زقنجلر وكالفن** فى أوائل القرن السادس عشر، وكروميل خلال ثورته فى القرن السابع عشر .

ليس الإسلام وحده .

(١) مقال التصوير الاسلامى بين الحظر والإباحة، مجلة عالم الفكر – المجلد السادس – العدد الثانى يوليو – اغسطس سبتمبر ١٩٧٥ .

(٢) Isa Salman: Islamand figurative art-sumer Vol. XXV 1969.

التقييم الحضارى للتراث:

مرة أخرى أقول إنى أقصر البحث على التراث الإسلامى أى على حقبة واحدة من تراثنا العريض الذى يضرب فى أعماق القدم قبل الأديان بل قبل التاريخ نفسه.

والتقييم الحضارى لتراث أمة، له قاعدتان:

* عطاؤه الباقى وحجم هذا العطاء.
* مدى تأثيره فى حضارة الإنسان على أرضه أو خارجها.

ومادمنا بصدد الحديث عن التصوير فى الإسلام فإننى أمضى فى الحديث عن الفن الإسلامى.

العمارة الإسلامية:

إن الخاصية الرئيسية التى يوصف بها العالم الإسلامى من حيث الحضارة بعامة، هى أنه حقبة ثقافية فى تطور جماعات متعددة ومتميزة من حيث الجنس والظروف الجغرافية، وليس تعبيراً عن شعب واحد من الشعوب أو منطقة من المناطق(١).

ومن هذا المنطلق نجد العمارة الإسلامية ذات أثر بعيد فى العمائر المسيحية واليهودية خلال العصر الإسلامى فى الأندلس وبعده(٢).

لقد بلغ من إحساس المسلمين بالفن أن اعتبروه صورة للفضيلة وكان القاضى أحمد ابن ميرمنشى(٣) يقول: (صفاء الكتابة ينبع من صفاء القلوب) فى لمح للإمام على قبله الذى كان يقول (جمال الخط يزيد الحق وضوحاً).

---

(١) اقرأ (تراث الاسلام) ص ٢ ترجمة د. حسين مؤنس والأستاذ حسين صدقى العمد ومراجعة د. فؤاد زكريا.

(٢) اقرأ جروبيه E. Grube ،عناصر إسلامية فى عمارة البندقية فى العصور الوسطى،

Element Islami cinell architettura Veneta del mediaevo

بحث نشر فى مجلة المركز الدولى للدراسات المعمارية فى بلاد يو مجلد ٨ (١٩٦٦)

Bolletina del centra Internazionaledi stvdid' architettura

وبحث ج. مايلز G. Miles الدولة البيزنطية والعرب

اقرأ د. أ. جيزار بهوى فى Byzantium and the arabs

التأثيرات الشرقية فى الفن الغربى Oriental Influences in Western art

(٣) الخطاطون والمصورون Calligraphers and Painters

كان الفن فى نظر المسلمين الكبار .. فضيلة وكانوا يصفون فنانيهم بأنهم أمثلة للتقى الوادع .. وعلى ذلك فإن المثل الاعلى للفنان أو الصانع الماهر المسلم لا صلة له كما يقول ريتشارد اتنجهانزن Richard Ettinghansen بالفنان البوهيمى الذى نعرفه من العصر الرومانسى.

وتمعن هذه النظرة فى السمو عند **المتصوفة العلماء** والأعلام فيقول الغزالى (إن الجمال ينقسم الى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس والى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم والثانى يدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركا بالقلوب فهو محبوب القلب)(١).

ويقول جلال الدين الرومى: (إن الشخص العادى يرى فى العقل طينا متشكلا فقط، فى حين أن الآخرين ينظرون إلى الطين على أنه حافل بالمعرفة والأعمال)(٢).

إن الفن الإسلامى كما يقول ريتشارد فى اتجاهه الى المحافظة على أسلوب مميز منسجم جعله لغة مشتركة يفهمها المسلمون (وكانت لهذا الفن جاذبية أوسع من جاذبية اللغة العربية نفسها أو حتى الحروف العربية ولم يكن يفوقه الا **الدين**. ومن هنا جاء تأثيره الشامل على جماعة تتميز بالتقشف العام فى حياتها ولكنها مع ذلك حساسة انفعاليا، وهى جماعة تحاول دائماً أن تجد طريقها إلى الخلاص من متاعب الدنيا دون تدخل من قديس أو وساطة من كهنوت).

حتى الرموز القديمة المنحدرة من المأثور الشعبى فى مناطق مختلفة طوعها الفنان المسلم حين ادخلها فى نسيج الفن الإسلامى حلى ووحدات جمالية حتى المفاهيم السابقة على الإسلام، كان الإسلام من القوة بحيث استطاع مواجهتها وإدماجها فى فنه.

حتى التكرار فى الفن الإسلامى، لغة خاصة شفافة هامسة نجحت كما يقول ريتشارد اتنجهاوزن فى أن تجعل الناس يصغون إليها ويتأملونها مشدوهين وكأنهم تحت تأثير منوم مغناطيسى، سواء فى داخل «دار الإسلام» أو فى خارجها. وهذه القدرة هى التى تعطى الفن الإسلامى طابعه الخاص الفريد.

---

(١) (إحياء علوم الدين) للغزالى جـ ٤ ص ٣٠٣.

(٢) المثنوى جـ ٦ بيت ١١٤٤.

كان الفن الإسلامى مرتبطا بالإنسان تأكيداً لنظرة الإسلام الكريمة إليه، واحترامه له عقلاً، وروحاً، وارادة، حى حمله الله الامانة التى اشفقت منها الجبال إنسانية الفن الإسلامى هذه **قيمة كبرى**.

فإذا انتقلنا من **التقييم** إلى **التأثير** وجدنا للفن الإسلامى بصمة على المنشآت الاوربية دينية أو دنيوية.

(لقد وجدت فى بلاد شمال أوربا اثنتان وخمسون ألف قطعة من العملات الإسلامية ما بين كاملة وناقصة وبعضها صنعت منه حلى).

واكتشف فى جزيرة جوتلاند Gotland السويدية وحدها (أكثر من ثلاثين ألف قطعة من العملات الإسلامية ضربها ملوك الدولة السامانية).

وغير العملة فالسجاجيد الشرقية، والزجاج المزخرف بالمينا.

ولعل خلو التصوير الإسلامى من الرسوم الآدمية أو الرموز كالأديان الأخرى، كان خيرا عليه وميزة له إذ عملت هذه الظاهرة على انتشاره فى الغرب المسيحى وساعدت عليه إذ أنها بهذه الخاصية لم تجرح إحساس العقلية المسيحية. حتى الكتابات العربية كانت تستعمل على نطاق واسع فنجدها فى الهالة التى تحيط برأس المادونا (أى صورة السيدة مريم العذراء) كما نجدها على أطراف الأثواب التى يلبسها القديسون فى الصور وعلى أبواب الكاتدرائيات.

لقد شق الفن الإسلامى طريقه إلى الغرب المسيحى **بالجمال ... بالفخامة ... بغنى بالألوان ... بالاتقان ... بالطرافة ... بارتباطه بالأرض المقدسة**.

ولعل أكثر الفنانين الأوربيين تأثراً بالفن الإسلامى: رمبرانت Rembrandt الذى كان يحاول فى كثير من الأحيان إيجاد جو شرقى عندما كان يرسم موضوعات تتعلق بالكتاب المقدس، مع أنه من العسير أن تعين أشكالا محددة فى تلك اللوحات بخلاف ما كان يرسمه فيها من عمامات وطيالسة تركية ضخمة. غير أن قطع النسيج الحريرية اللامعة تساعد على بعث الجو الشرقى، كما كان يساعد على ذلك تكوين الصورة على الطريقة المسماة فى الفن الغربى باسم «نور الظلام». أي تركيز النور فى بقعة من اللوحة وترك الأشياء الباقية فيها فى الظل.

الرسام الفرنسى «ديلاكروا» Delacroix فقد تأثر بالحضارة الإسلامية وخاصة فى طابعها المغربى فنحن عند النظر إلى لوحاته، (أمام عمل كامل تكون فيه الناحية الإسلاميقة جانبا هاما مندمجا كل الاندماج فى مخيلة فنان عربى).

كما نلمس تأثيرات عديدة للفن الإسلامى تكاد لا تحصى فى لوحات عصور النهضة والباروك والركوكو(١).

وترك النسيج الإسلامى فى أوربا أثرا باقيا بل إن الفخار وهو سهل الكسر وجد منه أعداد فى أوربا نقلت إليها فى العصور الوسطى.

أما السجاجيد الشرقية فكان اقتناؤها علامة اليسر والترف والذوق الرفيع حتى أنها كانت تستخدم فى مناسبات التتويج.

وتأثرت أوربا بالتحف المعدنية الإسلامية حتى بلغ من بُهر أهلها بها أن انتحلوها فغدت تحمل توقيعين .. توقيع الصانع المسلم وتوقيع الأوربى المعجب. وكانت أوربا تسمى هذا اللون من الفنون الإسلامية «صنعة العجم» (الزمينا Azziminwork).

حتى المنمنمات الإسلامية انتقلت إلى أوربا وأثرت فيها.

وذيوع الفن الإسلامى وسيرورته، لعبت مصر فيه الدور الأكبر. يقول ريتشارد اتنجهاوزن: (إن مناطق العالم الإسلامى التى كانت المنابع الأولى للاستيراد من الشرق واستلهام فنونه، كانت تقع فى منطقة البحر الأبيض المتوسط أى **مصر والشام والأندلس والمغرب ثم تركيا** بعد ذلك. أما بلاد مثل إيران والهند فقد لعبت دورا أقل. كما أن مناطق هامشية أخرى مثل القوقاز وآسيا الصغرى كان لها دور أقل من الأخيرة فى ذلك المجال.

التراث الأدبى:

ويقف على قمته، القرآن الكريم قمة شامخة لا تضاهى ولا تقارن مهما بلغت الكتابات وأصحابها.

لقد أحدث الأدب العربى أكثر من نقطة تحول فى الآداب الأوربية (**ألف ليلة وليلة**) منذ ترجمها أنطوان جالاند Antoine Galland (١٦٤٦_١٧١٥) ذاعت ذيوعا فوسفوريا أسطوريا فى أوربا، واستفاد دانتى من **رسالة الغفران** ووصف الجنة عنده بلمح أوصاف الجنة عند محيى الدين بن عربى.

---

(١) الركوكو Rococo طراز فنى يتميز بالإسراف فى المحسنات الزخرفية من أشكال آدمية وتوريقات واقمشة وتصوير ملائكة فى هيئة أطفال وقد شاع الطراز فى فرنسا وإيطاليا فى أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

كما **تأثر جوته بالشاعر الفارسى حافظ الشيرازى** بعد ان ترجم ديوانه ج . فون هامر بورجشتال J. Vanhammerpurgstall (١٧٧٤ – ١٨٥٦) ونشرت الترجمة بين عامى ١٨١٢–١٨١٣ فجاء ديوان جيته المسمى (الديوان الغربى الشرقى) عرفانا بالقيم الكبيرة لهذا الشعر.

ومن فارس أيضا **رباعيات الخيام** التى ترجمها فتزجيرالد Edward Fitzgerald وكان قبلها مغمورا فذاع له بها صيت كبير وعرف العالم الأوربى من خلالها عالما أكثر حرية وصفاء وإنسانية فإن التأثيرات الآتية من أدب المسلمين كما يقول «فرانز روزنتال» كانت تقدم إحساسا بالتباين وشعورا بوجود بديل آخر عن «الواقع»، ووسعت النظرة الغربية إلى العالم وجعلتها اكثر تنوعا. (وليس من شك في أن ذلك أغنى الأدب الغربى بدرجة لا حد لها، وكان أحد العوامل التى مكنت هذا الأدب من التطور فى اتجاه نوع من العالمية كان جديدا فى تاريخ الإنسانية).

التراث الموسيقى:

ويصف مصنف الفارابى الضخم فيها، «الموسيقى الكبير» هنرى جورج فارمر[١]، بأنه أعظم مؤلف فى الموسيقى صنف حتى عمره.

ويقول و . رايت O. Wrilht إن نظام الموسيقى الموزونة (المازوره) أخذه الغرب عن العرب وأن أوربا لم يصبح لها نظام للإيقاعات إلا بعد ما وقفت على الإيقاعات التى وجدت من قبل فى فن الموسيقى عند المسلمين.

ويتردد صدى المصادر الموسيقية العربية فى الكتابات الموسيقية العبرية التى وضعت فى العصور الوسطى وخاصة كتاب الفارابى «إحصاء العلوم» الذى تأثر به ابن عقنين (٥٥٥ ـ ٦٢٣هـ).

كما نقله إلى العبرية قالونيموس Kalonymus كما اقتبس الأديب اليهودى سعيد ابن يوسف الكاون من مقالات الكندى فى الموسيقى فى كتابه (كتاب الأمانات والعقائد). وخاصة ما يتعلق بالإيقاع.

---

(١) (الموسيقى عند المسلمين) H.G. Farmer, the Music of Islam

وهو بحث فى كتاب اكسفورد الجديد فى تاريخ الموسيقى جـ ١، ص ٤٦٠.

The New Oxford History of Music

وقد تأثرت بالآلات الموسيقية الإسلامية آسيا وإفريقيا وأوربا ولا يزال الموسيقيون البارزون فى شمال الهند، إلى اليوم من المسلمين.

لقد كانت الآلات الموسيقية فى موسيقى المسلمين العسكرية شيئاً جديداً على الصليبيين حتى تحدث المؤرخ جوينفيل Joinville عن تأثير الأبواق العربية، وامتد هذا التأثير كأقوى ما يكون إلى الإعجاب بالموسيقى العسكرية التركية فى أواخر القرن الثامن عشر.

وأشد ما يكون التأثر بالموسيقى الإسلامية، فى الأندلس حيث شاعت فى اللغة الإسبانية الاصطلاحات والمسميات الموسيقية الإسلامية.

التراث الفلسفى:

لقد تأثر الغرب بابن سينا تأثراً ضخما تمثل فى تعريف ألبرت الأكبر للنفس، وفى نظريته فى النبوة كما تأثر به توما الاكوينى فى الوسائل والمصطلحات ودانس سكوتس Dans Scotus فى رأيه فيما وراء الطبيعة. كما شاعت شروح ابن رشد لارسطو فى الغرب حتى لقبوه بالشارح الأكبر. (The Commentator Par Excellence)

كما لقبوا **ابن طفيل** صاحب قصة (حى بن يقظان) بالفيلسوف المعلم نفسه وقد ترجمت قصته إلى **العبرية واللاتينية والإنجليزية وكان (كيث) يعتبرها تثبيتاً للإيمان**. وترجمت قصة ابن طفيل إلى الالمانية والإسبانية والفرنسية والروسية. والأخيرة قام بها كوزمين J. Kuzmin سنة ١٩٢٠.

وقد نقل وترجم بلاثيوس كثيراً عن الغزالى وابن عربى كما درس الصوفى الأندلسى ابن عباد الرندى.

وهكذا **شكلت الفلسفة الإسلامية وأعلامها مرحلة هامة فى تطور الفكر الانسانى.**

التراث العلمى:

يطول الحديث ويتشعب أمام تراث الإسلام العلمى فلأترك هذا الكتاب (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه) للدكتور عبد الحليم منتصر ... وكتاب (أثر العرب فى الحضارة الأوربية) للأستاذ عباس محمود العقاد، وكتاب (تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك). للأستاذ قدرى حافظ طوقان.

فقط أقف عند اثنين من علمائنا العالميين، وهما:

١- **الرازى** الذى ظل الغرب يأخذ عنه حتى القرن السابع عشر.

٢- **البيرونى** ويعتبر مارنتن بلسنر كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) الكتاب الأول من نوعه فى الفكر العالمى وموردا لا يقدر للمعلومات المتعلقة بتاريخ الأديان ومأثورات الشعوب.

هذه الاشعاعات كلها كان وراءها الإسلام. هذا التراث الإنسانى كله كان وراءه الإسلام. لقد كان المغول يسكنون صحراء جوبى .. فلما امتدوا وخرجوا منها، خربوا ودمروا وسفكوا الدماء ولكن العرب **بفضل الإسلام** حين خرجوا من صحرائهم، عمروا ونشروا معانى الحق والعدل والخير والجمال والفن والعلم وهذه كلها أنفع لروح الإنسان من كل بناء عالى الصرح. ولا ينفى هذا وجود حاكم من العتاة غير مأمون أو وال من الطغاة مأمون ... ولكن هؤلاء لم يتمثلوا مبادئ الإسلام أو لم يتشربوها وإن دانوا به ... لهذا لا يحسبون عليه ... وإنما يحسب له ما أدى وأوفى وأضاف وأضفى وهو ليس - بالهين أو القليل الشأن ... بعد أن قام عليه الدليل وممن هم غير مسلمين.

نخلص من هذا إلى ضرورة ملحة فى واقعنا هى **دراسة تراثنا فى جميع مراحله التاريخية، ومن منابعه الأصلية والأصيلة**. وهنا تظهر أهمية البرديات التى سبق لى الحديث عنها.

أعرف أن للتراث والتاريخ مصادر أخرى:

* من عالم الطبيعة كالأحوال الجيلوجية والمناخية لتحديد العصور.
* من عالم الإنسان كالآثار المادية من عمارة وفنون تشكيلية بأنواعها.

وكل له قيمته فى تكييف التاريخ على الرغم من الصعوبة وتضارب التفسير حين تتشابه الأشياء بين بلد وآخر .... ولكن البرديات **شهادة مدونة ثابتة**، حين توجد، يكون لها المقام الأول فى تأصيل وتوثيق التاريخ، وتحديد دور الحضارات وبالتالى دور الأمم فى عطايا العقل، والعلم، والفن، والعقيدة والأخلاق.

وقد بدأنا نعنى بهذا الجانب أن التركيز على البرديات، **حركة حضارية** إذ هى من أهم وسائل البحث عن الحضارات الأولى التى قامت فى الشرق الأدنى بعامة، ومصر بخاصة.

ولشد ما تذكرنى هذه الحركة العلمية التى يقف وراءها مركز البرديات بجامعة عين شمس فى الثمانينيات بحركة جيمس هنرى برستد فى ١٩١٩ حين تم تأسيس المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو لدراسة الحضارات القديمة وأوجه النشاط البشرى التى حققها، دراسة جامعة متكاملة.

وتشتد أهمية الدور الحضارى للأمم القديمة العريقة فى هذا العصر بالذات الذى يجتمع عليها، فيه، حروب شتى منها:

التحديث ....

التغريب

دعاوى المعاصرة والتراث

الانتحال الصهيونى للحضارات القديمة للإيهام بأنهم أصل الأشياء .. وبالتالى يتقاضون الثمن علوا فى الأرض واستكبارا، ونهبا واتجارا، بل قتلا ودمارا واستيلاء واعتداء ملوحين _ بنظرية الهنود الحمر، ونظرية البقاء للأصلح، ونظرية الأمن ... الخ النظريات المغرضة والمبغضة والمفتعلة.

نحن الذين صنع أوائلنا النهار فلا ينقص صنيعهم أن يكون للآخرين حضارة أو لايكون .. فنفوسنا لا تحكمها عقد تاريخية أو قومية ننكر معها على ذى حق حقه ... ولكننا ننكر أن ينتحل الآخرون ما أنفقنا فيه ألوف السنين ... ومن هنا يكون التفاتنا إلى البرديات أكبر كثيرا.

لم نكن في يوم من الأيام أحوج منا، اليوم، إلى صحوة علمية .. إلى البرديات فى عملية تأصيل علمى وتاريخى وحضارى يساندنا وضعا وموضعا .. إننا لا نريد أن ندخل مع غريمنا فى جدل إنشائى، ولكننا، ومن ورائنا تاريخ طويل خصب العطاء، نريد أن نحتكم إلى المنهج العلمى .. أى الدليل المادى المحسوس الذى فيه بلاغ يحسم التأويل، ويقطع التضليل.

وغير اليهود فقد أثبتت البرديات أن كثيرا من التراث الذى يحسب لليونان، إنما هو مصرى كتبه **مصريون بحروف يونانية** ... أضف إلى هذا أن هؤلاء كانوا يتخذون أسماء يونانية أو أسماء تحمل الإضافة OS فى آخرها كالأسماء اليونانية فى حركة «تقية» تلجأ إليها الأمم العريقة فى محنتها فى عملية البقاء والمداراة ثم أخذ دورٍ ولو تحت اسم مستعار.

إن مصر هى واضعة تذكرة الطب المشهورة/ باسم تذكره نيليوس كلوس وظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة إلى القرن الثانى عشر.

ووضعت مصر المسيحية غالبية المصطلحات الطبية وعليها تتلمذ جالينوس ولها شهد (نيتولتكس) فى كتابه الطب الشعبى المقارن.

إن البرديات أثبتت سبق مصر بفضل هيروفيلوس، العالم طُرا، فى دراسة الأمعاء الدقيقة كما سبقت إلى اصطناع البحث العلمى بفضل اقليدس صاحب (المبادئ)(١).

لقد ظل تاريخ الشرق القديم. إلى وقت قريب، يكتب وفقاً لقوالب محفوظة، فالإغريق يمثلون العقلانية، والتاريخ اليهودى كما تلح دعاياتهم يمثل التوحيد، أما مصر فهى أرض حضارة براجماتية لم تصل إلى مستوى الحضارتين الإغريقية واليهودية فى التجريد!! ونسوا أو تناسوا أن مصر قبل ظهور الأديان عرفت الله والتوحيد والبعث والحياة الأخرى والثواب والعقاب _ والقيم والأخلاق عرفت الضمير.

إن الدراسات الحديثة أثبتت أن التوحيد لم يوجد بشكل عميق ومؤثر كما وجد فى مصر، بل إن الفلاسفة اليونانيين دأبوا على الترحال إلى مصر رغبة فى التزود بالمعرفة والعلم اللذين نسبا إليهم فى النهاية!!

وتتميز رحلات أفلاطون إلى مصر بأهمية خاصة لأنها تشكل علاقة مباشرة بين نظريات _ أفلاطون الميتافيزيقية والفلسفة المصرية، ومن هنا يظهر بل يبرز التفسير الخاطئ للثيولوجية المسيحية فى الاسكندرية على أنها الأفلاطونية الحديثة، بينما الأكثر صحة أن تعرف الأفلاطونية على أنها المصرية الحديثة.

على أن (أفلوطين) رأس هذه المدرسة، مصرى صعيدى من أسيوط ولكن يبدو أن تقارب الأسماء بين (أفلاطون وأفلوطين) أوقع فى اللبس.

ويعتبر اكتشاف مكتبة نجع حمادى القبطية ذا أهمية لانهائية لعلماء المصريات لما تحويه من وثائق تمثل الفكر الفلسفى المصرى القديم دون انقطاع، وهى تعادل فى هذا، الدور الذى لعبته المدرسة الهلينية فى إحياء الفلسفة اليونانية القديمة(٢).

---

(١) (شخصية مصر) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد.

(٢) يقرأ فى هذا بحث المصرى المغترب الدكتور رشاد شكرى الذى ألقاه فى مؤتمر تورينتو بكندا الذى عقد فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٨٢.

إن ورود لفظة (كفيتو) فى النصوص المصرية القديمة وهى جزر برايجة، يفسر وجوه الشبه بين فنون كريت وصناعاتها بأصولها الفنية فى مصر. ومثل هذا يقال عن فينيقية التى أخذت عن مصر استعمال **النحاس والكتابة والحروف** الهجائية المصرية التى أخذتها عنهم عدة لغات منها الروسية.

وظلت أوربا ردحاً طويلا من الزمن تعزو حضارتها إلى اليونان متجاهلة أو جاهلة النبع البكر والمنبع الحقيقى .. مصر.

أما اليهود فهم يتعمدون عزو الحضارة الغربية إلى اليونان لشدة وطأة تفوق مصر القديمةعلى نفوسهم وإحساسهم بالتبعية لها حتى غدت عقدتهم الكبيرة، حضارة مصر! يعترف بهذا فرويد نفسه فى كتابه: (موسى .. مصريا).

على أن عزوهم الحضارة الغربية إلى اليونان له غرض آخر خبئ .. وهو حجب مبدأ نقلهم عن مصر واحباط ريادات مصر التى لم ينج منها تاريخهم عند المنصفين من المؤرخين مثل جيمس هنرى برستد الذى قارن طويلا بين المزامير وتسابيح اخناتون .. وبين حكم مينمو وسفر الأمثال ... وبين المعبد المصرى ومعبد سليمان.

أحبت مصر الكتابة حتى سجلت خواطرها على الورق، وعلى الجلد، وعلى الخشب، وعلى الحجر، نقوشا وعلى الفخار ... وفى المتحف المصرى شظايا وبقايا فخار يعتز به البحث العلمى؛ اذ يحمل من الموضوعات، مؤشرات إلى أنواع المعاملات والصكوك .. حتى يتساقط من أحجار البناء بعد تسويتها لاقامة المبانى ملأته مصر الشعبية، كتابة ... ليس هناك، هدر، فى الوقت أو المادة (وقد وجد من لخاف الأحجار المكتوبة، أو المرسومة أو المنقوشة، عدد كبير جداً فى معبد الكرنك، مردوما بالقرب من الجدران، وفى مقابر الملوك بطيبه حيث كان النقاشون يلهون وهم فى انتظار العمل، بجمع القطع المتناثرة من الأحجار ليرسموا _ عليها صورا ترافق أهواءهم، أو يكتبوا عليها أدبا من تأليفهم، أو شعرا من نظمهم.

وقد عولجت فى هذه القطع الحجرية المرسومة أو المنقوشة موضوعات متباينة كل التباين .. منها مناظر دينية، وصور للملوك، ومشاهد لرياضة الصيد وقتال الوحوش)[1].

وأوراق البردى بلغ طولها عشرات الأمتار بل اكتشفت فى طيبه (بردية أيبرس) سنة ١٨٧٣ وطولها نحو ٧٠ سبعين قدما وعرضها ثمانون سنتيمترا (وهى محفوظة الآن فى مكتبة ليبزج)، ويرجع تاريخها إلى ١٥٠٠ ق . م .. وهى مقسمة إلى ٢٩ جزءاً.

(١) كتاب (أوراق البردى) تأليف الأستاذ زكى سعد والأستاذ أحمد يوسف، ص ٣.

ولاغرو فمصر المتدينة والتى كانت حضارتها دينية، اقترن الدين عندها بالكتابة، والمعبد بالمكتبة.. وكانت هذه المكتبة مجلى الفخر عند الكهنة بما تضم من علوم وتشريع وحقائق.

وكما جعلت مصر للكتابة إلهة سمتها سشات وزوجتها من إله الحكمة فى احساس دقيق وعميق ... رقيق ووثيق بما بين الكتابة والحكمة من صلات وسمات وسشات هى صاحبة الدار الكبيرة للكتب بالعرابة المدفونة. وقد وجد على جدران معبد أدفو فهرست ببيان كتبها.

وبجوار معبد أدفو معبد دار كتب حورس. وكان يوجد فيها كتاب خاص بوصف البلاد _ المصرية.

فهل كان علماء الحملة الفرنسية على علم به أم هو توافق أسماء؟

أقول: البرديات هدف أكاديمى وهدف قومى:

* جمعها هدف
* دراستها هدف ... وتدريسها هدف.
* تحليلها هدف.
* فن قراءاتها هدف.
* تصويرها هدف.
* تخديمها هدف.

إن قيمة حضارة من الحضارات تتمثل فى:

كثرة منجزاتها.

قيمة هذه المنجزات

بقاء هذه المنجزات

تأثير هذه المنجزات فى الآخرين.

وهى مهمة وعرة لا يعين عليها إلا الوثائق التى لا تقبل الجدل أو الإنكار وفى مقدمتها: البرديات.

ويضاعف أهمية هذا، وخطره، أن البرديات ليست سبيلا إلى معرفة مصر القديمة فحسب، ولكنها سبيل إلى **معرفة المسيحية**،

obeikandl.com

وإلى معرفة **الحضارة الإسلامية**.

فقد كتب المصريون بأسلوبهم ورسائلهم أبرز ما فى التاريخ المسيحى وأبرز ما فى التاريخ الإسلامى مستخدمين: **البردى**.

فكما كانت البرديات وراء ما كتب عن الطب المصرى القديم والرياضيات والعلوم (بردية «لى») والدين (بردية «شستر بينى Chester Beany) والفلسفة والقصة (بردية Orbiney و Harris) والمسرحية (بردية Anastass) (التى تتضمن رائعة ايبور الحكيم).

وكما كانت البرديات وراء ما وصل إليه العلم من القانون عند قدماء المصريين ومنه استطعنا أن نقارن بين قانونهم وقانون حامورابى الذى يتفاوت فيه الحكم بين المتقاضين وفق المركز الاجتماعى لكليهما لا العدل المطلق كما عند مصر التى استطاع فيها الفلاح الفصيح أن يفصح عما يعتقد.

إن برديات تل العمارنة التى اكتشفت سنة ١٨٨٧ والتى كشفت العلاقة بين ملوك مصر وملوك آسيا الصغرى .. تلك العلاقة التى حددتها معاهدة رمسيس الثانى مع ملك (الخطاس) أكبر من شروط صلح. إن الأستاذ جورجى الراهب يعدها ذات أهمية عظيمة إذ أنها تبين لنا قواعد القانون الدولى العام والخاص فى ذلك الحين[١].

وهو أوج من الحضارة بلغته مصر وترجمته البرديات .. ليتنا نتدارسه انجازا مصريا كما نتدارس قوانين جاءت بعده لانشائه كالقانون الرومانى.

وفى المسرح توصل العلامة الفرنسى دريتون[٢] من الوصول إلى حقائق مثبتة حول وجود المسرح المصرى القديم، وذهب إلى أنه كان هناك نوعان من المسرحيات، بعضها شعرى وهو الذى كان يؤدى كجزء من الطقوس الدينية، والبعض الآخر عاش مستقلاً عن المعبد، وطقوسه وان كان يحمل الطابع الدينى. ودلل على وجود هذا النوع الثانى من المسرح ببردية برلين رقم ١٤٣٥، وبردية المتحف البريطانى رقم ١٠١٨٨.

---

(١) اقرأ بحث (القانون الدولى والاقتصاد السياسى عند قدماء المصريين) لجورجى نجيب الراهب فى مجموعة أبحاث كتاب (تراث مصر القديمة).

(٢) دريتون (المسرح المصرى القديم) ترجمة الدكتور ثروت عكاشة ص ٤٥-٤٦.

اقرأ (من المسرح المصرى القديم: انتصار حورس) نقلها عن الهيروغليفية هـ . و . فيرمان ترجمها الدكتور عادل سلامة.

كما كانت البرديات وراء إنجازات آلاف السنين من عمر مصر القديمة استمر دورها فى مصر المسيحية ثم مصر الإسلامية. ويوضح الدكتور على إبراهيم حسن، قيمتها الكبرى فى دراسة التاريخ الإسلامى، فعن طريقها، (أمكن معرفة سيرة كثير من ولاة مصر وخاصة فى عهد تبعية مصر للأمويين والعباسيين ونظام الدواوين وأحوال مصر الادارية ونظمها الاقتصادية والحالة الاجتماعية .. ومنها نعلم أثمان الأصناف الصناعية والحاجيات والماشية وأثمان الأراضى والعقارات وقيمة النقود النسبية .. أما الحياة الداخلية فقد وضحت أساليبها عن طريق هذه الأوراق التى كشفت عن أمور دقيقة ذات تأثير فى مجرى الحوادث الجارية)[١]. ويقول: (وهذه الأوراق _ أى البرديات _ **هى مصدر هام لتاريخ مصر الإسلامية**ا يستطيع مؤرخ وصف الحياة العامة فى مصر وصفا دقيقا، دون الرجوع إلى هذه الأوراق التى أخرجت من أرض مصر[٢].

والتاريخ الإسلامى على اهتمامنا العلمى، وارتباطنا العاطفى، به، كثير منه:

مبدد غير مصون

مفرق غير مجموع .. كما أشرت

إن مركز البرديات تأخر مولده كثيرا بعد أن اهتم العالم المتقدم والمستشرقون بدراسة البرديات أمثال سلفستر دى ساسى وادولف جروهمان، وكاراباتشك اللذين كتبا عن أوراق البردى المحفوظة فى مجموعة الأرشيدوق راينر Rainer بالمكتبة الأهلية فى فيينا..... «ومرجوليث» الذى كتب سفرا ضخما عما فى مكتبة جون رايلاندز بمدينة مانشستر فى انجلترا، وبيكر Beeker الذى كتب عن مجموعة شوت راينهار Schott Reinhardt و H.J.Bell وكروم Crum اللذين كتبا عن مجموعة افروديت فى المتحف البريطانى.

وهؤلاء جميعاً طراز آخر غير لامانس Lmmenas الذى طالما حجب عنه، تعصبه، الحقائق الواضحة[٣]

ومن أشهر البرديات:

بردية لانسنج Lancing بالمتحف البريطانى.

بردية كوللر Koller ببرلين.

(١، ٢) كتاب (استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط) للدكتور على ابرهيم حسن، ص ٥٤.

(٣) اقرأ بحث (مصادر مهملة فى التاريخ الاسلامى) للدكتور زكى حسن، المقتطف عدد خاص سبتمبر ١٩٧٧.

بردية أبوت Abbott بلندن.

بردية أمهرست Amherest ببروكسل.

بردية ماير Mayer بليفربول.

ليست البردية شيئاً قليلاً.

فقد تحمل بردية واحدة أكثر من مؤشر وأكثر من علامة.

وقفة مستأنية أمام بردية بولاق Boulac Papyrus وبعض ما جاء فيها:

(صن لسانك عن مساوئ الناس، فإن اللسان سبب كل الشرور .. وتحرر محاسن الكلام. واجتنب القبائح. **فإنك ستسأل فى آخرتك عن كل لفظة**).

هنا إيمان بالحساب.

(بيت الله يدنسه الصخب)

هنا مستوى رفيع من الإحساس .. من الإدراك .. من الرؤية.

(لا تكن شرها. فان الانسان لم يخلق ليأكل دائماً، بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها **طريقة لحياة أبدية**).

هنا إيمان بالحياة الأخرى .. بعد إحساس حضارى بالتعفف.

(لا تستلم إلى اليأس مهما قام فى طريقك من عقبات وشدائد).

هنا **إصرار**، هو صفة مصرية.

(لا تكن جالسا إذا وقف امامك من كان أكبر منك سنا أو أرفع مقاما).

إنه «إتيكيت» مصر القديمة قبل عصر الصالونات فى أوربا

(اجتنب تعاطى الخمور خشية من سوء عواقبها .. لأن لشارب الخمر، فلتات يستقبح صدورها منه متى أفاق. وهو دائما مبتذل محتقر عند الناس حتى بين إخوانه الذين يشاركونه غروره وشروره).

إنها روح إسلامية.

وما أكثر لقاءات مصر الفكرية مع الإسلام. فقدحرمت مثله لحم الخنزير وحرمت الربا وحذرت من تعاطى الخمور. وتتسع المقارنة إلى مدى فسيح بين مصر و(اليهودية) ... ومصر و(المسيحية) ...

غير مغال برستد حين يقول: (ولأمر ما كانت الأديان السماوية الثلاثة فى المنطقة التى تحيط بمصر).

فإذا خلفنا بردية بولاق، إلى بردية لندن London Papyrus ثم أصغينا، _ تهدَّى إلينا صوت من أعماق الزمن .. يقول على لسان مصر:

(إذا أذل الغنى فقيرا، أذله **الله** فى الدنيا، وأذاقه العذاب فى **الآخرة**)

هنا إيمان بوجود الله .. وايمان بالثواب والعقاب .. وإيمان بالآخرة.

(من أعطى الفقير، أعطى الله).

(أعدت الجنة لمن يضحى بحياته للفقير).

إيمان بالجنة.

(لا تفاخر بالغنى أمام الفقير، ولا تظهر الفرح أمام الحزين)

إلى هذا المدى كان عطف مصر ... وإلى هذا الشأن الرفيع كان لطف مصر.. رهافة حس من طول العهد بالحضارة.

وليست دلالة هذا بالشئ الهين من حيث القيمة ومن حيث التوقيت الزمنى الذى قيلت فيه.

وكم فى طوايا البرديات من أسرار ودلالات واشارات من حقها أن نفرد لها **معهدا خاصا** ليخرج فريقا يرعاها درسا وجمعا، وصوتا، وتسجيلا، وتصويرا، وتحليلا.